السّلام هو أصل الإسلام

*أبوالوفا محمود

الحق الذي هو نقيض الباطل ، هو العدل الخالص ، وهو الأصل الراسخ ، روح كل نظام ، وحياة كل كمال ، وقوام كل خير في الأرض والسماء ، يهتدي إليه العقل السليم ، ويؤيده العلم الصحيح ، ويتأدى إليه النظر القويم ، ويرتاح إليه القلب ، ويطمئن له الضمير .

أما الباطل فهو الفساد الزائل ، الزور الحائل ، والظلم الكبير، والشر المستطير ، علّة كل متداع ، وسبب كل فتنة ، ينفر منه العقل ، ويدحضه العلم ، ويتقزز منه النظر ، لا تقوم له دولة إلا حيث تسود الجهالة ، وتعم العماية ، أو حيث تتمرد الشهوات ، وتعبد الأهواء ، وتُستهدف المثل وتُتَعجل الهتكات .

الحق هو الأصل الأصيل في كل وجود ، والباطل يعرض عليه ، فمتى تقابلا اصطرعا ، وتنازعا السلطان ، والحق يدحض الباطل ويزهقه ، ويكرعليه ويمحقه ، ولا عبرة بتطاول الزمان ، فإن للخالق عزّوجلّ حكمة في ذلك الإمهال حكمة ، ولا بد أن تذوق شيعة الباطل وبال أمرها ، فترجع إلى هداها عن بينة ، أو تهلك عن بينة لتكون عبرة لغيرها من الجماعات البشرية . فالحق أساس الوجود كله ، وقوام كل موجود فيه ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾1

كما شبّه الله تعالى الباطل بالزبد الذي يعلو الماء حين يتدفق سيله في الأودية ، وبالزبد الذي يطفو على المعادن ، فقال عزّ و جلّ : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء ﴾2 لعدم الفائدة فيه . الحق عدلٌ ، وقد أعلن الله الناس بأنه يؤيد الحق وينصره ويزهق الباطل ويبطله ، بقوله تعالى :

أستاذ مساعد بمركز الشيخ زايد الإسلامي بجامعة بنجاب ، لاهور .

﴿.....وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ O لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾3

فالحق خيرٌ ، والباطل شرٌّ ، وإن من يتتبع قصص الأنبياء عليهم السلام يجد أنها صورة مكررة لكفاح مرير بين الحق والباطل ، يتمثّل في النزاع بين النبي والمؤمنين به ، وبين أعدائه من الكفار ، ولو لا أن الله قد أحاط الأنبياء بعنايته ورعايته ، وأمدهم بروح منه لهلكوا جميعا :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾4

والباطل ظلمٌ وبغيٌ وعدوانٌ ، والظلم هو مبعث كل حرب في عالمنا ، وردعه واجب ، حتى يسود العدل . والله لا يحب الظلم والعدوان ، ويذيق الظالمين العذاب بما اكتسبوا في حياتهم الدنيوية ، بقوله : ﴿.....وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾5

إن الحق والباطل هما ضدان أبديان ، أحدهما مبصر ذو رحمة ، والثاني أعمى ذو بطش شديد .. وإن الصراع بين أمم الأرض للغلبة سنة باقية ، وطبيعة فيهم راسخة ، غالبهم يريد العلو في الأرض ، لبسط نفوذه ، والأثرة بما عند الآخرين . وهذا الصراع لا يقف عند حدّ ، فهناك صراع سياسي ، وصراع عسكري ، وصراع فكري . فكل أمة تريد أن تكون رايتها عالية ، بل ولو أمكنها أن تكون غالبة على العالم ، وحينما تتعارض الرغبات يبدأ الصراع .

القرآن الكريم ينزل المعترك الأبدي بين الحق والباطل في الأرض منزلة الاعتبار والاعتراف به ، ويدعو معتنقي مبادئه ألا يهملوا النظر إلى هذا العراك وما وراءه من نتائج ، وأن يحملوا أنفسهم على الأخذ بأسباب الأهبة للانخراط في سلك المحاربين في صفوف الحق ، حرباً لا هوادة فيها ولا تخاذل ، ولا غفلة ، لأن الباطل إذا وجد سبيلا إلى السيطرة على الحق فلن يرحمه ولن يتركه للحياة .

والإنسان عند علماء النفس مجموعة من الغرائز ، وأن القتال إحداها ، وهي غريزة لم تنشأ في طبعه إلا للدفاع إذ هي وليدة غريزة الخوف فيه ، لكنها قد تطورت مظاهرها ، فانقلبت من الدفاع إلى الهجوم والاعتداء ، لما لم تجد ما يكبحها من دين أو نظام . وسبب هذا التطور أن الإنسان يتطلع دائما إلى الكمال والسبق والفوز والغلبة ،

وكثيرا ما يتبع ذلك الحسد والبغضاء لمن يتفوق عليه . ومن هذا التدافع والتقاء الرغبات حول هدف واحد كان النزاع والقتال قديما وحديثا ، وكان الاعتداء غريزة فطرية في الإنسان ، وكان لا بد له أن يبغي وأن يفسد في الأرض ، ويسفك الدماء: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّىْ جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيْفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيْهَا مَن يُفْسِدُ فِيْهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء ﴾6 وقد ظهرت آثار الغريزة بأجلى معانيها من أول ما عمرت الأرض بأولاد آدم على الرغم من قلة عددهم ، وشدة اتصالهم ، فاقتتل قابيل وهابيل ، لما تقبل قربان أحدهما دون أخيه . ولم تختف تلك الغريزة قط في الإنسان أفراداً وأمماً ، فلم يخل عصر من معتدٍ ومعتدى عليه وقاتل ومقتول ، ولم تنقطع الحروب بين الأمم من فجر التاريخ إلى اليوم لأوهى الأسباب استجابة لداعي الغريزة الفطرية في الإنسان .

وإن من يتتبع قصص الأنبياء عليهم السلام يجد أنها صورة مكررة لكفاح مرير بين الحق والباطل ، يتمثل في النزاع بين النبي والمؤمنين به ، وبين أعدائه من الكفار ، ولولا أن الله قد أحاط الأنبياء بعنايته ورعايته وأمدهم بروح منه لهلكوا جميعاً . قال تعالى في شأن نوح عليه السلام : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِO ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِيْنَ ﴾7 ، وفي قوم موسى عليه السلام قال :﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِيْنَ oثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِيْنَ ﴾8

جاء الإسلام والقتال هو الشرعة السائدة في العالم بين الأمم جميعاً ، لا تخلو دولة ولا مكان من نزاع وتناحر لأسباب واهية تافهة وأغراض لا طائل تحتها . فكان من فضل الإسلام أن نظم تلك الغريزة الفطرية في الإنسان وهذّبها وحصرها في أضيق حدودها . وجعل لها أسباباً شريفة وأغراضاً سامية لا تعدوها ولا تقوم إلا من أجلها .

دأبت أوربا تحت ستار حرية الفكر على الطعن في الإسلام ونبيه ، وهم يخفون وراء ذلك أغراضاً دينية واستعمارية ، يخدمون بها دينهم ودولهم .

إن انتشار الإسلام السريع أفزع أعداء الإسلام ، فراحوا يروجون فكرتهم التي سيطرت على عقولهم أن الإسلام دين الإرهابيين وأنه دين حرب وقتال ، فهو دين

دمويٌ ، وأنه يدعو أتباعه دائما إلى حمل السلاح لإجبار الناس جميعا على اعتناقه بالقوة ، ويحبب في الجهاد ، وهو دين قام على حدّ السيف وأسنّة الرماح . ثم وازنوا بينه وبين المسيحية في هذه الناحية ، وذهبوا إلى أن المسيحية خير منه ، لأنها دين يدعو إلى التسامح المطلق ، ويمقت القتال بكل وسائله ودواعيه . ويسوقون شواهد لا يؤيدهم فيها إلا خيالهم الخصب المدفوع بكوامن البغضاء والحسد. فذهب كارل بروكلمان إلى هذا الرأي بأنه "يتحتم على المسلم أن يعلن غير المسلمين بالعداوة حيث وجدهم ، لأن محاربة غير المسلمين واجب ديني" .(9)

من المعلوم أن مظهر التسامح والمحبة والسلام في المسيحين الأوائل ، فلم يكن مصدره تعاليم سيدنا المسيح بقدر ما كان نتيجة لحكم البيئة والظروف . فالنبي عيسى عليه السلام جاء ليصلح الديانة اليهودية ، ويخلصها من البدع والخرافات ، ويعيد لها صفاءها الأول ، كما جاء بها سيدنا موسى عليه السلام . لكن الإسلام لم يأت لإجراء تصحيح جزئي في ديانة سابقة ، وإنما جاء لهدم كل انحراف عقيدي أو أخلاقي أو سلوكي في العالم كله . وجاء بشريعة خاتمة لكل الشرائع ، وشاملة لكل شؤون الدنيا والآخرة . فقامت أول مرة في تاريخ الأديان دولة ذات صبغة عالمية في مبادئها وأهدافها على أساس عقيدة وشريعة سماوية ، وهذه ميزة امتاز بها الإسلام .

نشأت المسيحية في فلسطين ، وهي كانت وقتئذ مستعمرة رومانية ، التي كانت أكبر دولة في ذلك الزمن ، التي كان لها نظامها وقوانينها الراسخة . ولا تزال تلك القوانين تعتبر ينبوعاً لمعظم القوانين في أوربا . فلم يسع المسيح عليه السلام لإقامة دولة مسيحية على أساس الديانة المسيحية ، وقصرت المسيحية جهودها على العمل في ميدان الروح والوجدان ، وقد نجحت في رسالتها الروحية ، قبل أن ينحرف بها أتباعها .

أما الإسلام فنشأ في شبه الجزيرة العربية ، التي كانت مستقلة تماماً عن أي نفوذ أجنبي ، ولم تكن بالمنطقة نظم أو قوانين كتلك التي كانت سائدة في فلسطين . وكانت تلك فرصة طيبة للإسلام ، لكي يقيم المجتمع والدولة والنظام الذي يريده ،

على أساس الشريعة التي أنزلها الله على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام . فعمل في ميدان الروح والوجدان ، وعمل في واقع الحياة . لأن الإسلام في جوهره دعوة خالصة إلى التوحيد الخالص تستهدف خير البشرية وسعادتها ، ولكون الإسلام رسالة عامة إلى الإنسانية جمعاء ، ولكون النبي محمد صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء فقد تضمنت رسالة الإسلام نظاماً شاملاً كاملاً لحياة البشر عقيدة ومعاملات . فالإسلام عقيدة وسلوك ، يقوم على دعامتين أساسيتين : الأولى وحدانية الله ، والثانية المساواة بين البشر، وقد سبق كل النظريات الاجتماعية الحديثة بأن وضع تصوراً إلهياً شاملاً لعلاقة العبد بربه وعلاقة العبد بالعبد ، فجعل الأولى علاقة مباشرة لا تحتاج إلى واسطة أو كهانة ، فسما بها السمو اللائق ، وأقام الأخرى على أساس من الإخاء الإنساني ، فحل بذلك العديد من مشكلاتها التي تفادت المسيحية المحرّفة مناقشتها .

ومن ناحية ادّعائهم أن المسيحية دين يدعو إلى التسامح المطلق ، يمكن أن يكون صحيحاً قبل انحراف أتباعها من تعليمات المسيح عليه السلام ، كانحراف اليهود من قبل بديانتهم . فقد خضبت المسيحية – منذ فجرها إلى يومنا هذا – أقطار الأرض جميعاً بالدماء باسم المسيح عليه السلام ، خضبتها أمم أوربا كلها وتخضبها الولايات المتحدة الأمريكية اليوم باسم الغزو ضد الإرهاب بدوافع واهية وحجج جعلتهم يقومون بهذه الجريمة الشنعاء ، ويقنعون أنفسهم بالحجج تلو الحجج ، يثيرون الفتن ويحملون الصواريخ والقنابل والمتفجرات معصوبة العينين ، تدمر وتقتل بكل عشوائية ، يحدوها الحقد والجهل والشيطان ، تقتل دون تمييز ، وبدون وجه حق ، فيزرعون الخوف في كل مكان بطريق مباشر بهجوم "درونز" أو بطريق غير مباشر بالوكالة كأعمال منظمة "بليك واتر" الإرهابية وأمثالها من أناس أو هيئات.

هل هناك أي مبرر ديني يسوغ القتل العشوائي وترويع الآمنين؟

وهل ينسى المسلمون محاكم التفتيش في الأندلس ؟

وهل ينسى المسلمون ما جرى في القدس إبان الحروب الصليبية ؟

ومن أذكى لهيب الحروب الصليبية ؟

إنما أذكاه المسيحيون ، ولم يذكِه المسلمون . ولقد ظلت الجيوش باسم الصليب تنحدر من أوربا خلال مئات السنين قاصدة أقطار الشرق الإسلامية تقاتل وتحارب وتريق الدماء . وفي كل مرة كان البابوات خلفاء المسيح يباركون هذه الجيوش الزاحفة للاستيلاء على بيت المقدس .

أفكان هؤلاء البابوات جميعا من أهل البدعة ، وكانت مسيحيتهم زائفة ؟؟

أم كانوا أدعياء جهالا لا يعرفون أن المسيحية تدعو إلى التسامح وتنكر القتال على إطلاقه ؟

مع الأسف أن ناس حمقى من المسلمين الذين ليس لهم خلفية دينية اغتروا بهم ، وتجرّعوا سمومهم الممزوجة بالسكر، فتعاونوا على الإثم والعدوان ، وزيّن لهم الشيطان سوء عملهم . ثم إننا نسمع دائماً كلمة الحرب المقدسة ، وهذه جملة استعملت بدلا من جملة القتال أو الجهاد في سبيل الله ومصدرها من الغرب ، أرادوا بذلك تبرير مقالتهم الشنيعة حول الجهاد الإسلامي ، واتهامهم له بالجور والبطش ، فالحرب المقدسة عندهم تعني الحرب العادلة الرحيمة ، لأن القتال أو الجهاد في نظرهم كلمة تعني شراسة الطبع والخلق والهمجية وسفك الدماء ، وتعطيان صورة مواكب الهمج مصلتة سيوفها ، متقدة صدورها بنار الغضب تزحف على الأمم لتقول لهم : إما أن تدخلوا في الإسلام ، وإما أن نضرب أعناقكم . (10)

فالحروب ليست مقدسة ، ولا تعرف الرحمة ولا يردع المحاربين شيء عن الوصول إلى الفتك بالآخرين والتغلب عليهم إلا الإسلام ، فإنه يقيد المسلمين ويرسم لهم الكيفيات التي يجب أن يسيروا عليها . وقد ذكرها الشيخ محمود شلتوت في كتابه يحسن أن نوردها وهي :

1- أن غير المحاربين من المدنيين ، والنساء ، والأطفال ، والشيوخ ، والعجزة ، لا ينالهم سوء .

2- أن يسارع المسلمون إلى وقف الحرب تلبية للرغبة في السلم متى جنح العدو لذلك.

3- أمرالإسلام أن يعامل أسرى الحرب بالبر والإحسان ، إلى أن يطلق سراحهم إما بالمن أو الفداء .

4- حذر الإسلام من التنكيل ، والتخريب لقوله صلى الله عليه وسلم " لا تقتلوا الذرية في الحرب ، قالوا : يا رسول الله أو ليسوا أولاد المشركين ؟ قال : أو ليس خياركم أولاد المشركين ؟ "

5- لا يبيح الإسلام الدخول في الحرب إلا بعد إعلان العدو في مدة تكفي لوصول خبرها إليه .

6- لا يشترط الإسلام وقف الحرب بإسلام المحاربين ، بل يكتفي بكف شرورهم ، أو التعهد بذلك ويعقد معهم المعاهدات .(11)

الإسلام والسَّلام :

إن كلمة الإسلام مأخوذ من السلم وهو الأمن . فالسلام هو أصل الإسلام وقاعدته في علاقات الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم . والحرب هي ضرورة لا يلجأ إليها إلا عند مقتضياتها المشروعة . فالحرب في حدّ ذاتها ليست غاية ، وإنما هي وسيلة لتحقيق أسمى الغايات وهو السلام . لقد خلق الله سبحانه وتعالى أعضاء الإنسان وعقله وكل طاقات العمل لديه للبناء ، وليس للهدم والخراب ، وأراد ليده أن تكون دائماً ممدودة بالخير والسلام ، وليس لزرع الشرّ وترويع الآمنين وإثارة الفتن ، ولا لتدمير البيئة وتلويثها .

شرع الله الإسلام لتكميل استعداد البشر الفطري للرقي في العلم والحكمة ، ومعرفة الخالق سبحانه وتعالى : ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ 12. لذلك لم تشمل تعاليمه على ما ينافي الغرائز الفطرية أو يصدمها:

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ 13.

أي لو فرض الله عليهم ما ينافي غرائزهم كقتل النفس والخروج من الوطن لعصى الكثير منهم ، ولم يطع إلا أصحاب العقائد القوية ، فلم يكتب الله على المسلمين ذلك كما كتبه على بني إسرائيل ، لأن الإسلام دين الفطرة السليمة.

ولما كان القتال إحدى الغرائز القوية في الإنسان ، فقد عالجه الإسلام ضمن هذا النطاق العام ، فجعله مقصوراً على الدفاع دون الهجوم والاعتداء ، ورسم له حدوداً روعيت فيها الحرمات الإنسانية تمام الرعاية ، ونظمه أسمى تنظيم ، وأنزله المنزلة التي خلق من أجلها ، وجعله حارس حدوده وسياج دولته .

والآن نذكر الدواعي والأسباب التي حددها الإسلام للقتال :

1- تأتي الحاجة إلى الحرب في الإسلام حين يقع العدوان على المسلمين ، فتكون الحرب رداً للعدوان ، ودفاعاً شرعياً عن النفس بمقتضى قوله تعالى :

﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ○وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ○فَإِنِ انتَهَواْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ○وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ○الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ 14.

وقال تعالى :

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ○
الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ○ 15.

والتعبير (يُقَاتَلُونَ) ذو دلالة كبيرة مقصودة ، فهو يدل على أن المسلمين تعرضوا بالفعل للظلم ، وعندئذ كان لا بد من رفع الظلم عنهم ، وهم في حالة الدفاع عن النفس. فإن القرآن الكريم يذكرهم بألا ينسوا أن القاعدة الأساسية في علاقاتهم بالآخرين هي السلام .

لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة والوافدين عليها إلى التوحيد ، فاعتدى المشركون اعتداء صارخا على المسلمين دون سبب إلا لأنهم كانوا يقولون : ربنا الله. واستباحوا في الحرم الآمن دماءهم وأموالهم وأعراضهم . فرمي النبي وصحابته بتهم هازلة وشتائم سفيهة ، وتألفت جماعة للاستهزاء بالإسلام ورجاله على نحو ما تفعل الصحافة الأوربية اليوم عند ما تنشر صوراً كاريكارتورية لاذعة للنبي عليه السلام ، تقصد من هذه السخرية والتحقير تنقيص مكانته وإيلام المسلمين وتخذيلهم وتوهين قواهم المعنوية .

ثم كان قتال النبي صلى الله عليه وسلم لردّ هذا العدوان فقط دون اعتداء ، بل مع الأمر بتقوى الله ، وقد أكّد عدم الاعتداء بكراهته تعالى للعدوان مطلقا. فالغزوات والسرايا التي قام بها الرسول والمسلمون في عهده كانت كلها للدفاع دون الهجوم ، كانت لرد الاعتداء والعدوان لا للاعتداء والعدوان . فهدف الإسلام هو السّلام ، وإذا اضطرّ المسلمون للحرب فيجب حصرها في نطاق دواعيها فقط ، أي لردّ العدوان دون زيادة من جانبهم ، أو محاولة لتوسيع نطاقها .

2- وتأتي الحاجة إلى الحرب في الإسلام ردّاً للفتنة وقطع دابرها . والفتنة هي تعسف الطغاة والمتجبرين ، واشتدادهم في اضطهاد المؤمنين حتى يلجئوهم إلى ترك دينهم ، ويردوهم إلى الشرك . فقد حاول كل من مشركي مكة ، والروم صد الراغبين في اعتناق الإسلام ، فكان لزاما أن يتصدى الإسلام لهذه المحاولات ، ويقاتل من أجل أن يتيح للناس حرية الاعتقاد . قال تعالى :

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّيْنُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِيْنَO 16.

3- وتأتي الحاجة إلى الحرب في الإسلام ضماناً لحرية العقيدة ، وتأميناً للدعوة الإسلامية وحمايتها بقوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسO 17.

فالرسالة المحمدية عامة للناس جميعا من يوم مبعثه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فالنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون مكلفون بنشر الدعوة ، فإذا اعترض سبيل هؤلاء عقبات وأشواك أو منعوا من أداء رسالتهم أو اعتُدِي عليهم ، فذلك هو الصدّ عن سبيل الله . ففي هذه الحالة أوجب الإسلام القتال حماية للدعوة . ومعنى حماية الدعوة هو الدفاع عن حرّية نشر العقيدة ، لا لنشر العقيدة ، لأن العقيدة لا تحتاج إلى القوة لنشرها إذا خلت الطريق أمامها من العوائق .

4- وتأتي الحاجة إلى الحرب في الإسلام دفاعا عن المظلومين ، وذلك واجب على المسلمين بأمر ربهم

﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً ﴾ 18.

فالدفاع عن المظلومين ونصرتهم عمل إنساني في الدرجة الأولى ، وهدف أساسي من أهداف الإسلام .

5- كما يبيح الإسلام قتال الأعداء في حالة نقضهم لمعاهدة ، أو خرقهم لميثاق بينهم وبين المسلمين . قال الله عزّ وجلّ :

﴿وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ O أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .....﴾ 19.

ويلاحظ على الحرب الإسلامية أنها لم تشرع إلا في حالة الضرورة القصوى حيث لا تجدي دعوة السلام ، وهي لذلك تأخذ حكم الضرورات فتنتهي بانتهاء الغرض منها . وفي كل الحالات يجب على المسلمين مراعاة تقوى الله سبحانه

﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ 20

ثم ينبه سبحانه وتعالى المسلمين في ناحية هامة ، وهي ناحية شعورية نفسية ، فقد يضايقهم تصرّف شاذ وظالم من أعدائهم ، وقد يحملهم هذا الشعور على التفكير في

العدوان على هؤلاء الأعداء ، وعندئذ يطالبهم الله تعالى بضبط النفس وكفها عن العدوان:

﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ .....﴾ 21.

هل هناك ما هو أروع من هذا السلوك في تنفير المسلمين من الحرب ، ودعوتهم إلى كظم غيظهم ، وحصر الحرب في أضيق نطاق ؟ وحتى في حالة الحرب إذا وجد القائد المسلم أمامه فرصة – ولو ضئيلة – لتحاشي الحرب ، وتحقيق السلام – ولو بشيء من التضحية – فيجب عليه ألا يدع هذه الفرصة تفلت من يده ، كما هو موقف الرسول صلى الله عليه وسلم عام الحديبية ، الذي يعتبر أوضح برهان على نظرة الإسلام إلى الحرب . فإذا أبدى العدو أي ميل إلى السلام ، فعلى القائد أن يستجيب :

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ .....﴾ 22.

وهذه الآية جاءت مباشرة بعد الآية التي تدعو المسلمين إلى الاستعداد العسكري القوي المؤثر الذي يرهب الأعداء ، وهي قوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ 23.

يدل على أن الاستعداد العسكري لا يعني بالضرورة الحرب ، بل قد تؤتي القوة ثمرتها دون أن تستخدم ، أو قد يرهبها العدو ويلقي سلاحه ويجنح إلى السلام .. هذا هو موقف الإسلام من الحرب . فالسلام هو هدف المسلمين الأسمى ، وآيات القرآن قاطعة الدلالة على أن الأصل في علاقات المسلمين بغيرهم من الأمم هو السلام ، وكذلك أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأعماله وسيرته . قال تعالى :

﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ 24.

فتلك هي الدوافع التي ذكرناها ، من أجلها فرض الله على المسلمين القتال . وكل حرب لم ترتكز في قيامها على أحد هذه الأسباب المذكورة ليست من الإسلام . فليس من الإسلام في شيء كل حرب قامت لسيادة عنصر أو تغليب جنس أو للحصول على المغنم . وكانت حروب المسلمين دائماً للحق لا للعدوان ، وللحماية لا للجناية ، وللأمان لا للسلطان .

إنسانية الإسلام في الحرب :

من المسلم به أن من طبيعة الحرب في القديم والحديث القسوة والعنف بل الوحشية المسعورة التي تصل إلى درجة الإفناء والتخريب والإبادة والتدمير التام كما حدث في الماضي القريب في كوسوفو ، والبوسنة والهرسك والشيشان ويحدث أمامنا كل يوم في فلسطين وكشمير المحتلة وأفغانستان والعراق ، صارت مذابح للمسلمين . وكل ذلك يحدث في هذا العصر عصر النور والعرفان والحضارة والمدنية والرقي الإنساني .

وضع الإسلام للحروب أسساً من الرحمة والرفق ترتفع بها درجات الإنسانية الكاملة إلى الذروة بما لم يسبقه أو يلحقه فيه قانون ولا عرف ، وطبّقها النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت نصائحه ووصاياه دائماً لقواد حملاته الحربية تدور في نطاقها ، وهي تقاليد ومبادئ إنسانية في أهدافها ، الغرض منها تخفيف ويلات الحرب على المقاتلين أنفسهم ، فيحتم الإسلام من المسلمين الاعتناء بجرحى أعدائهم ومداواتهم وإطعامهم ، ويحرم بطبيعة الحال الإجهاز عليهم أو إيذائهم بأي شكل من الأشكال . كما يطلب الإسلام من المسلمين تجنيب المدنيين شرور الحرب وأخطارها . فالإسلام مع اعترافه بالحرب الدفاعية ، واعتبارها حرباً مشروعة . إلا أنه ميز تمييزاً واضحاً بين المقاتلين وغير المقاتلين . فواجب الجيش المسلم الاتجاه بقوته لتحطيم مقاومة المقاتلين فعلاً في ميدان القتال . أما من لم يباشر القتال بنفسه من الأعداء فليس لنا أن نقتله أو نتعرض له . بل يوصي الإسلام المقاتلين المسلمين بعدم التعرض للأهداف

المدنية، وينهاهم عن التدمير والهدم والتحريق ، لأن الإسلام جاء ليبني الحياة ويعمرها ، ولم يجئ ليهدم ويدمر .

ومن تعليمات النبي صلى الله عليه وسلم المتكررة لقواده العسكريين ، الالتزام بالنظام وحسن السلوك ، وعدم اللجوء إلى أساليب السلب والنهب ، التي كانت عادة الجيوش الغازية في تلك الأزمان ، وكان مضرب المثل في الالتزام بهذه المبادئ . فكانت بعوث النبي عليه السلام وسراياه نحوًا من خمسين . وكان إذا بعث سريّةً أو جيشًا(25) ، بعثهم من أول النهار. ويُؤَمِّر عليهم أميرًا ويأمرهم بطاعته ، وأوصاه في خاصة بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيرًا . وقال : (إذا لقيت عدوّك فادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، فإن أبوا فاسألهم الجزية ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم) . (26)

وفي رواية : ثم قال : (اغزوا باسم الله في سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدًا) . (27)

وكان صلى الله عليه وسلم يوصي أصحابه بالأسرى خيراً .

انظر إلى تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم لقواده وأمراء جنده لتدرك مدى إنسانية الإسلام أثناء المعارك التي خاضها والتي يخوضها مضطراً .. ثم انظر إلى جيوش الدول "المتمدنة " في هذا العصر تمارس الأعمال الوحشية ، وترتكب الجرائم الشنيعة بأعدائها المسلمين كالسيدة العفيفة "عافية" والشعب الأفغاني والشعب العراقي ، وما يقترف أصحاب الفكر المنير الجرائم بأسرى سجن "بكرام" و"أبي غريب" وغيرهما في عصر النور والحرية ، وهم يزعمون أن الدين الإسلامي دين هجمية ووحشية .

لعلّنا استطعنا في هذه السطور أن نوضح بطلان ما افتراه أعداء الإسلام على دين السلام ، ونعطي صورة سريعة عن نزعة الإسلام إلى السلام ، ومنها يتضح أنه أساس علاقة المسلمين بغيرهم ، بينما تجيء الحرب في الإسلام اضطراراً وضرورة ، في بعض الأحيان ، لإقرار السلام .

الهوامش

[1] - الحجر : 85 .

2- الرعد : 17 .

3- الأنفال : 7-8 .

4- الحج : 38 .

5- الدهر : 31

6- البقرة : 30

7- الشعراء : 119، 120

8- الشعراء : 65 ، 66

9- كارل بروكلمان- تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص : 78

10- المودودي ، أبوالأعلى ، وسيد قطب ، وحسن البنا - الجهاد في الإسلام - ص : 6 - الطبعة الثانية 1389هـ - الاتحاد الإسلامي العالمي .

11- محمود شلتوت - الإسلام عقيدة وشريعة - الطبعة السادسة - ص : 474 . محمود شلتوت - الإسلام عقيدة وشريعة - الطبعة السادسة - ص : 474 .

12- الروم : 30

13- النساء : 66

14- البقرة : 190-194

15- الحج : 39 ، 40

16- البقرة : 193

17- المائدة : 67

18- النساء : 75 .

19- التوبة : 12 ، 13 .

20- البقرة : 194 .

21- المائدة : 2 .

22- الأنفال : 61

23- الأنفال : 60

24- النساء : 90

25- السَّريَّة ، بفتح المهملة و كسر الراء ، و تشديد التحتانية . هي قطعة من الجيش تخرج منه و تعود إليه . فتح الباري (56/8) و تبلغ أقصاها أربعمائة تبعث إلى أرض العدو ، وجمعها : سرايا . النهاية (363/2) . و في القاموس (494/4) السَّرِيَّة من خمسة أنفس إلى ثلاثمائة أو أربعمائة . وفي السيرة الحلبية (134/3) و ربما الواحد سريّة ، هي في الأصل كثير . وربما سمّوا الاثنين فأكثر بعثاً ، ومنه بعث الرجيع . وظاهر كلامهم: أنه لا فرق في ذلك بين أن يكون إرسال ذلك لقتال ، أو بغير قتال : كتحسّس الأخبار ، أو لتعليمهم الشرائع ، كما في بئر معونة والرجيع ، أو للتجارة ، كما في سريّة زيد بن حارثة رضي الله عنهما ، حيث ذهب مع جمع لتجارة. وقال ابن عبد البر في الاستيعاب (43/1) : كانت خمسا وثلاثين من بين بعث و سرية . وقال ابن الجوزي الشام . قال الواقدي في مغازيه (7/1) و ابن حزم في جوامع السيرة (ص 17) و ابن سعد في الطبقات (605/2) و ابن سيد الناس في عيون الأثر (223/1) و القسطلاني في المواهب (221/2) أنها سبعاً و أربعين في الوفا (ص : 729) : كانت ستا و خمسين سرية . وقال ابن القيم في زاد المعاد (129/1) : و أما سراياه و بعوثه ، فقريب من ستين . وحكى المسعودي في مروج الذهب (306/2) ستة و ستين .

26- صحيح مسلم (1357/3، ك : الجهاد ، ب : 2 ،ح : 3)

27- والحديث بطوله في صحيح مسلم (1357/3، ك : الجهاد ، ب : 2 ،ح : 3) . وأخرجه أحمد في المسند (240/4) والحاكم في المستدرك (541/4) .